

الوسطية والاعتدال ودورها في التعايش مع غير المسلمين *

بقلم الدكتور دلهوم لخضر

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بن يوسف بن خدة جامعة الجزائر 1.

معالم تعايش في القرآن الكريم؟ وما هي أبرز تجليات ذلك في الواقع العملي في حياة المسلمين؟ كل هذه الأسئلة سأحاول الإجابة عنها فيما يلي:

الفصل الأول: مفهوم الوسطية والتعايش وأهم معالمها في القرآن

المبحث الأول: مفهوم الوسطية والاعتدال.

أولاً: معنى الوسطية لغة:
الوسطية مأخوذة من مادة وسط، وهي كلمة تدل على العدل والفضل والخيرية والنصف والتوسط بين الطرفين⁽¹⁾.

تميّزت الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم بأنها أمة الوسطية والاعتدال بعيداً عن الانحراف أو التطرف، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة 143]، فكان منهاجها مثلاً في الاستقامة والاعتدال فلا تشدد ولا لين، ونتج عن هذه الوسطية في النظرة إلى الحياة والدين والناس جملة من المبادئ والأخلاق والمعاملات في التعامل مع غير المسلم، فما هو مفهوم الوسطية والاعتدال؟ وكيف تعايش المسلمين مع غيرهم، وما هي

واستقرار، وما أحوج العالم اليوم إلى تدارس تلك القيم والضوابط والأخذ بها حتى يتفرغ الإنسان لأداء رسالته التي خُلق من أجلها وهي عبادة الله سبحانه وتعالى وعمارة الأرض. وهذه مجموعة من المعالم التي اجتهدت في استنباطها من القرآن الكريم، والتي تضع تصورا واضحا حول علاقة المسلم بغيره ونظرته إلى كل بني الإنسان.

أولا: المؤشر الإنساني.

إن الإنسانية إحدى خصائص الإسلام الكبرى، إنها تشغل حيزاً كبيراً في منطلقاته النظرية، وفي تطبيقاته العملية، وقد ربطت بعقائده وشعائره ومنهجه وأدابه ربطاً محكماً فالإنسانية في الإسلام ليست مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، وليست فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، وليست حبراً على ورق سطرته بعض الأقلام، إنها ركنٌ عقدي وواقع تطبيقي، وثمار يانعة. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

ثانياً: الوسطية في الشرع: جاءت الوسطية في الشرع بمعنى العدالة والخيرية، والتوسط بين الإفراط والتفريط، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة 142] (2).

تعريف التعايش: عايش يتعايش، تعايشاً، عاشوا على الألفة والمودة تعايش الناس: وُجدوا في نفس الزمان والمكان.

مُجْتَمَعٌ طَائِفِيٌّ يَعِيشُ أَهْلُهُ فِي تَعَايُشٍ وَوَنَامٍ: يَعِيشُونَ فِي تَسَاكُنٍ وَتَوَافُقٍ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِهِمُ الدِّيْنِيَّ وَالْمَذْهَبِيَّ (3).

المبحث الثاني: مؤشرات الوسطية والاعتدال في التعايش مع غير المسلمين في الإسلام.

لقد خلقنا الله تعالى، وجعلنا شعوباً وقبائل لتتعارف ونتعايش وفق قيم تحترم الإنسان، وبموجب ضوابط تكفل لكل فرد حقه في العيش بسلام

هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَنْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ فَخَرَهُمْ بِرِجَالٍ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِدَّتِهِمْ مِنْ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»⁽⁵⁾.

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

الناس من جهة التمثال أكفاء

أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم شرف

يفاخرون به فالطين والماء

ثانياً: إنسانية الأخلاق.

يحرص القرآن الكريم على بيان أن الصدق والأمانة والرحمة والخير صفات إنسانية يشترك فيها جميع البشر، لذلك نجد القرآن الكريم يغرس في تصور المسلم أن الخير والشر يوجد في أهل الكتاب كما هو موجود في المسلمين كل بحسب إنسانيته وبشريته؛ قال ﷺ: «مبيناً أن

رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [سورة النساء

01] هذه السورة تبدأ بآية الافتتاح، التي ترد «الناس» إلى رب واحد، وخالق واحد؛ كما تردهم إلى أصل واحد، وأسرة واحدة، وتجعل وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة، وتستجيش في النفس تقوى الرب، ورعاية الرحم.

لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة، ثم في الإنسانية الواحدة، وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التي تتضمنها السورة⁽⁴⁾.

فإذا عرف المسلم أنه إنسان يشترك في إنسانيته مع غيره من بني البشر بل جعل النبي أصلهم من أب واحد وأم واحدة، لذلك حرص النبي ﷺ أن يكون التأكيد على وحدة العنصر البشري في آخر خطبة له في حجة الوداع فعن أبي

وصديق دائم، بل توجد مصالح دائمة، فإن القرآن الكريم يحدد معلما من المعالم التي ينبغي أن لا يغفل عنها المسلم وهو يحدد أولوياته ويحسب المخاطر والمصالح والمفاسد، وهو أن يضع في اعتباره أن أهل الكتاب هم الأقرب للمسلم من ناحية حب الخير، وحب الإيمان مع وجود اختلاف وفرقة في العقيدة، لذلك نجد القرآن الكريم يبين هذا المعلم للمسلم في تعاملاته السياسية أنه يمكن أن يعتمد على بعض النصارى في حل الأزمات والمحن، قال ﷺ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: 82]، عن مجاهد في قول الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾، قال: هم الوفد الذين

الخيانة والأمانة خصلتان توجد في عديد من آل الكتاب كما أنها توجد في عديد من المسلمين: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]، وقال ﷺ: مبينا أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله واليوم الآخر: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]، استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب، بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعميم، تأكيد لما أفاده قوله: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110] (6).

ثالثا: المؤشر السياسي.

إذا كان في علم السياسة بالمفهوم البراغماتي أنه لا يوجد عدو دائم

إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ
غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي
أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ
حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾ [المائدة: 5] (٧).

الفصل الثاني مظاهر الوسطية والتعايش المشترك في السنة النبوية

لا يمكن أن نفتخر بالوسطية
ودورها في التعايش بين أفراد المجتمع
الواحد إلا إذا وقفنا على نماذج واقعية
وملموسة تبين هذا التعايش بأشكال
مختلفة، وهذا الفصل سيبين أهم
مظاهر التعايش الذي كانت سائدة في
عهد النبي ﷺ ، وفيما يلي بيان لأهم
مظاهر هذا التعايش

المبحث الأول: مظاهر الوسطية والتعايش المشترك في المجالس العلمية في المدينة

أولاً: حوارات ومناظرات
عقائدية في المدينة النبوية.

جاءوا مع جعفر وأصحابه من أرض
الحبشة.

رابعاً: المؤشر الاجتماعي.

إذا كنا قد قررنا أن الإسلام جاء
لكي يبني علاقات إنسانية مع بني
الإنسان، فمن باب أولى أن يكون من
مظاهر هذه العلاقات الإنسانية،
علاقات اجتماعية مختلفة والزواج
من أبرز هذه العلاقات الاجتماعية،
فقد أباح الله زواج المسلم بالكتابية،
ولا يخفى ما للروابط الزوجية من دور
في تلاقح الحضارات وتماسكها، وهذا
دليل على أن الإسلام لا يلغي الدين
المسيحي واليهودي بل يعترف بهما،
ولأدل على الاعتراف بهما بإباحة الزواج
بالكتابيات من النساء والنهي عن نكاح
المشركين والمشركات . وهم الذين لا

دين سماوي لهم . قال ﷺ: ﴿إِلْيَوْمَ
أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

والأرضين على إصبع والجبال والشجر
على إصبع والماء والعرش على إصبع
والخلائق كلها على إصبع ثم يهزهن
فيقول أنا الملك أنا الملك فلقد رأيت
رسول الله ﷺ ضحك فأنزل الله تبارك
وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ
قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن
أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا
وَهُدًى لِلنَّاسِ يُجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا
وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ
وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]⁽⁸⁾.

ثانيا: الوسطية والتعایش عند
نساء الصحابة ودورها في تحقيق
الأمن الفكري والعقائدي.

وحتى يتأكد القارئ عن أن هذا
النموذج ليس الوحيد، نسوق هذا
المثال النسائي لكي ندلل على أن
التعایش في المدينة المنورة هو منهج
حياة وليس شعارا بعيد عن الواقع
العملي، فهي زوجة النبي ﷺ أم
المؤمنين عائشة تستقبل امرأة من

تعتبر المباحث العقدية من أصعب
المباحث طرحا وتداول في الأوساط
العلمية أو الاجتماعية لما لها من
حساسية مفرطة وما لها من أثر مباشر
على الحياة والعلاقات الاجتماعية،
وبالرغم من ذلك وجدنا النبي ﷺ
يضع حجر الأساس لهذه المناقشات
الحرّة والمعتدلة عندما استقبل وفد
نصارى نجران في مسجده وتجاوز
معهم حول طبيعة المسيح وغيرها من
المسائل العقائدية، وهذا الذي يبين
أن حرص الإسلام من خلال نبيه على
أن تكون المسائل الخلافية متداولة
في شكلها العلمي المعتدل، كمثال ثان
عن هذا التعایش العلمي في جانبه
العقائدي نذكر هذا الحوار هادئ
والمرح حول صفات الله العلى وقدرته
العظمى واليوم الآخر ينتهي بضحكة
عريضة من النبي ﷺ.

عن عبد الله قال جاء حبر من اليهود
إلى النبي ﷺ قال إذا كان يوم القيامة
جعل الله السماوات على إصبع

وهكذا فإن المتتبع لسيرة النبي ﷺ يجد بما لا يقبل الشك صفحات مشرقة في حسن تسامحه وتعامله مع مخالفيه في العقيدة والدين، وضرب لنا أروع الأمثلة في التعايش مع الآخرين على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم وأوطانهم. مما يؤكد بالدليل العملي على أن ثقافة التعايش في التعامل مع كل الناس هي سمة ومعلم من معالم الشخصية المسلمة السوية ومظهر من مظاهر سماحة الإسلام وعدله وانفتاحه على كل الناس.

ثالثاً: الوسطية والتعايش عند الرجال من الصحابة ودورهما في الحوار الصحي.

استحق الصحابة مدح الله ﷻ لهم بسبب حرصهم على حسن الاستئجار بالماء في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: 109]، وأنها نزلت في أهل قباء، أو أهل المدينة، وكان سبب مدحهم هو بما تعلموه

اليهود في بيت النبي ﷺ وتنتظر حتى قدوم النبي ﷺ لكي تسأله عن عذاب القبر، وهي مسألة من مسائل العقيدة، بالإضافة إلى مؤثر ثان يبين مدى التعايش السائد في المدينة هو أن المرأة اليهودية لم يجد أي حرج في الذهاب إلى بيت النبي ﷺ لكي تسأله دون تعقيدات بروتوكولية، ومخاوف من أن يصيها أي مكروه بطرحها لانشغالها المخالفة للدين الجدي، حتى نبين أن التعايش أصبح ثقافة واقعة في حياة الناس دون خوف على فكر أو عقيدة

عَائِشَةُ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ شَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: فَارْتَأَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِي، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟» قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَعْدُ يَسْتَعِيدُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»⁽⁹⁾.

الأمم مقبول شرعا بدليل أن الصيام كان مكتوبا على الأمم السابقة وشرعه الله لنا، كما أن الإسلام جاء ووجد الكثير من المعاملات كالزواج والطلاق والإيلاء والبيع وأباح ما توافق مع الإسلام منها، وهذب التي فيها مغالاة وخروج عن الوسطية والاعتدال، فأصل الأخذ من غير المسلمين ثابت في غير موضع من أحكام الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: الوسطية والاعتدال ودورهما في التعايش الثقافي

إن الثقافة والفنون هي خير سفير بين الثقافات لأنها استطاعت أن تتخطى حواجز اللغة والأنماط السائدة لتعزيز التفاهم بين الشعوب، وهذا يؤكد أهمية الفنون في تقارب الشعوب ويعطي رسالة للعالم حول الاعتدال واحترام الآخر والمساواة.

فالفنون بمختلف أشكالها ومستوياتها وتنوع أصولها، لعبت دورا

من جيران يهود لهم كانوا يسكنون بجوارهم، وهذا مثال عن الحوار الذي كان في المجتمع المدني بين المسلمين والعرب من جهة وبين اليهود وأن الإسلام لا يحرم الأخذ من أحكام الطهارة التي عند غير المسلمين إذا كانت تندرج تحت مقاصد الإسلام الكلية ولا تتعارض مع أحكام الإسلام فهذا نوع آخر من دور الوسطية والاعتدال في التعايش البيئي والسلوكي.

عن عويم بن ساعدة الأنصاري ثم العجلاني أن النبي ﷺ قال لِأَهْلِ قُبَاءَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي الطُّهُورِ، وَقَالَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا هَذَا الطُّهُورُ؟» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَعَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا⁽¹⁰⁾.

وفي آخر هذا العنصر هناك من ضعف هذا الأثر، ولكن المهم هو أن الحديث هناك من قواه واعتبره صحيا ويؤكد على أن الاستفادة من غيره من

فالترجمة من لغة إلى أخرى ما هي إلا وسيلة لتقارب وتعارف الحضارات والتجارب الإنسانية، لأن اللغة ما هي إلا بوابة لثقافة وحضارة المجتمعات البشرية، ولذلك فإن الترجمة فعل معرفي وثقافي وفكري وحضاري غايته الثقافية هدم كل الأسوار التي تعوق تقارب الثقافات، والحضارات سواء على مستوى المضمون أو على مستوى الشكل، مع إضفاء طابع الخصوصية على المواد المترجمة، بغرض تأصيلها في بيئتها الثقافية الجديدة.

المبحث الثالث: الوسطية والاعتدال ودورهما في التعايش الاجتماعي.

هذا النص من السنة يبين أنه كانت علاقات من الجيرة وحسن الجوار بين المسلمين وغيرهم إلى درجة جعلت أسماء بنت أبي بكر الصديق تتوحم على طعام جارتها اليهودية، وتقصد البيت بحجة طلب النار للموقد ثلاث مرات، وهي في كل مرة تطمع أن تحصل

هاما في تقارب الشعوب، وحتى أثناء الحروب كانت الفنون محط تقدير وتقدير لأنها من أرفع القيم، وهي الكفيلة بتحقيق الحوار الثقافي بين الحضارات لنبد كل ما يمت للعنصرية والإرهاب والاستعمار بشتى ألوانه؛ وفن الترجمة من الفنون الأدبية التي كان لها دور في نشر مختلف الثقافات والعلوم لذلك وجدنا النبي ﷺ حرص على حث الصحابة على تعلم لغات أخرى لكي يتسنى له قراءة رسائل الأمراء والملوك، فعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ «أَنْ يَتَعَلَّمَ كِتَابَ الْيَهُودِ» حَتَّى كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كُتُبَهُ، وَأَقْرَأْتُهُ كُتُبَهُمْ، إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَقَالَ عُمَرُ وَعِنْدَهُ عَلِيٌّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَعُثْمَانُ: «مَاذَا تَقُولُ هَذِهِ؟»، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَاطِبٍ: فَقُلْتُ: تُخْبِرُكَ بِصَاحِبِهَا الَّذِي صَنَعَ بِهَا وَقَالَ أَبُو جَمْرَةَ: كُنْتُ أُتْرَجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ «وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَا بُدَّ لِلْحَاكِمِ مِنْ مُتَرْجِمِينَ»⁽¹¹⁾.

فهذا النص يبين أن الأكل وهو من الخصوصيات التي تكون بين الأحبة والجيران القريبين من بعضهم البعض، وهذا دليل آخر يؤشر على حقيقة طبيعة العلاقة الاجتماعية التي لم تكن فقط سائدة في المجتمع المدني وداخل المدن الكبرى، بل انتقلت هذه الثقافة إلى القرى والبلدان المجاورة، وهذا دليل على الأمن والسلم الاجتماعي الذي كان سائدا في مجتمع المدينة وما جاورها.

المبحث الرابع: الوسطية والاعتدال ودورها في التعايش الاقتصادي.

من ضوابط التعايش الحضاري في المجال الاقتصادي والتجاري وهو يبين أن على المسلم أن يستفيد من غيره من الأمم والحضارات في التعامل معها تجاريا واقتصاديا، ولكن هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون على حساب مبادئ الشرع وأحكامه، لذلك حرم عليهم بيع الخمر والخنزير

على بعض طبخ جارتها اليهودية، حتى يصل زوجها الذي لا يرضى أن يأكل حتى تأكل أسماء عليها السلام؛ عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «كُنْتُ مَرَّةً فِي أَرْضِ قَطْعَهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَالزُّبَيْرِ مِنْ أَرْضِ النَّضِيرِ، فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، وَلَنَا جَارٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَذَبَحَ شَاةً فَطَبَخَتْ فَوَجَدْتُ رِيحَهَا، فَدَخَلَنِي مِنْ رِيحِ اللَّحْمِ مَا لَمْ يُدْخِلْنِي مِنْ شَيْءٍ قَطُّ وَأَنَا حَامِلٌ بِابْنَةٍ لِي تُدْعَى خَدِيجَةَ، فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَنْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى امْرَأَتِهِ أَقْتَبِسُ مِنْهَا نَارًا لَعَلَّهَا تُطْعِمَنِي، وَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ إِلَى النَّارِ، فَلَمَّا شَمَمْتُ رِيحَهُ، وَرَأَيْتُهُ أَرْدَدْتُ شَرًّا، فَأَطْفَأْتُهُ، ثُمَّ جِئْتُ الثَّانِيَةَ أَقْتَبِسُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قَعَدْتُ أَبْكِي وَأَدْعُو اللَّهَ، فَجَاءَ زَوْجُ الْيَهُودِيَّةِ فَقَالَ: أَدَخَلَ عَلَيْكُمْ أَحَدًا؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا الْعَرَبِيَّةُ أَتَتْ تَقْتَبِسُ نَارًا، فَقَالَ: فَلَا أَكُلْ مِنْهَا أَبَدًا أَوْ تُرْسِلِي مِنْهَا إِلَيْهَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيَّ بِقَدْحَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ تِلْكَ الْأَكْلَةِ، قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ: «الْقَدْحَةُ عَرَقَةٌ»⁽¹²⁾.

والميتة ويظهر ذلك عندما حاول بعض الصحابة أن يبين للنبي ﷺ الجدوى الاقتصادية من بيع شحوم الميتة بدعوى أنها ليست للأكل وإنما تستعمل في دهن أسطح السفن وغيرها فأكد النبي ﷺ تحريم كل معاملة تكون سببا لاستباحة محارم الله بطرق ملتوية كبيع شحم الميتة وأكله بدل تناول الميتة مباشرة وعلل ذلك بأنه من حيل الأمم السابقة التي كانت تستحل الحران بالتحايل على الله ورسوله وأن الله إنما أهلكهم إلا بسبب ذلك، وعليه فلاستفادة من تجارب الغير والتفاعل معهم لا يؤدي إلى التنازل عن الدين من جهة كما أن الاستفادة من معرفة ما وقع فيه غير المسلمين يمكن أن يكون في فائدة الأمة، هذا من جهة ومن جهة أخرى يريد النبي ﷺ أن يضع قاعدة تجارية واقتصادية للمسلمين وهي أن الفائدة والمصلحة ليست هي الهدف الوحيد في أي تعامل بين الناس في أي ميدان من ميادين التجارة والمال

والصناعة بل إنما هدف العمل هو تحقيق العفة والريح في إطار الكرامة وأحكام الشريعة، وأن كل تغليب للريح السهل والمحرم دون مراعاة هذه القواعد والمبادئ إنما هو تحايل على الله باسم الريح والفائدة كما تحايل اليهود من قبل: فعن جابر بن عبد الله أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ، قَالَ: لَا هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ فَأَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ. وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ. حَدِيثُ جَابِرٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ⁽¹³⁾.

الإسلام، والتعامل به في ميدان التجارة له أحكامه المخالفة للأحكام التي كان قبل الإسلام، فهذه المرونة النبوية في ترك الحركة التجارية مستمرة ووضع ضوابط وترك التفاعل التجاري من أهم الأسباب التي تبين التعايش والوسطية التي تميز منهج النبي في الميدان التجاري.

ثانيا: التعايش الزراعي.

عن عبد الله ﷺ قال أعطى رسول الله ﷺ خير اليهود من أجل أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها⁽¹⁵⁾.

ثالثا: التعايش المالي.

كان النبي ﷺ يتعامل بالمداينة مع اليهودي ويصر على الوفاء لهم، وكذلك المسلمين كانوا يقترضون من اليهود في المدينة ويحرصون على الوفاء وعدم ظلمهم في الجانب المالي، ولا يخفى لما لهذا التعايش المالي من دور في بسط روح الثقة والرحمة لأن المال جبان

أولا: التعايش التجاري في المدينة المنورة.

كان بعض الصحابة له علاقة تجارية مع تجار وفلاحى اليهود في المدينة المنورة وهذا دليل على الحرية الاقتصادية التي كان يتمتع بها الناس، بالإضافة لما للتجارة من دور في نشر الثقافة والأخلاق ونشر العقيدة والتعارف بين الأمم والشعوب.

عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ، يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: كُنْتُ أَبْتَاعُ التَّمْرَ مِنْ بَطْنٍ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو قَيْنُقَاعَ، فَأَبِيعُهُ بِرِيحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عُثْمَانُ إِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكْتَلْ، وَإِذَا بَعْتَ فَكِلْ»⁽¹⁴⁾.

فالنبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة المنورة وجد علاقات تجارية مختلفة تحكم أسواق المدينة، فلم يمنع النبي ﷺ الصحابة من الاستمرار في تلك العلاقات التجارية، ولكنه ضبطها بضوابط شرعية حتى يكون المال في

الخاتمة

لا يتعامل به أصحابه إلا إذا شعروا بالثقة والأمن.

وفي الأخير يمكن أن يكون لها دور حضاري في الأمم والشعوب دون أن تتحلّى بالوسطية في الطرح وتتعاش مع محيطها الداخلي والخارجي بروح متسامحة ومعتدلة، لكي تحقق الشهود الحضاري التي خصها الله به.

كما يمكن أن ألخص جملة من النتائج التي يمكن أن نخرج بها من هذه الورقة البحثية كما يلي:

1. أن الوسطية والتعاش في مجمع المدينة كان شعارا وممارسة على مختلف الأصعدة.

2. إن الوسطية والاعتدال لهما دور كبير في تحقيق الأمن والتعاش الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي.

3. إن القرآن الكريم وضع مؤشرات ومعالج للتعايش مع غير المسلمين سواء في الجانب الإنساني أو الأخلاقي أو السياسي والاجتماعي.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ سَعْنَةَ، كَانَ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ، فَجَبَذَ ثَوْبَهُ عَنْ مَنْكِبِهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَصْحَابُ مَطْلٍ، وَإِنِّي بِكُمْ لَعَارِفٌ، قَالَ: فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ أَحَوْجُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْقَضَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي، انْطَلِقْ يَا عُمَرُ أَوْفِيهِ حَقَّهُ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثُ فَرْدِهِ ثَلَاثِينَ صَاعًا لِتَرْوِيكَ عَلَيْهِ» هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ⁽¹⁶⁾.

الهوامش:

* المحاضرة أُلقيت ضمن فعاليات الأسبوع الوطني الثامن عشر للقرآن الكريم.

1 - انظر: لسان العرب 7/ 428 .
430، وتاج العروس 5/ 340 ومعجم
مقاييس اللغة مادة: (وسط) 108/6.
2 - انظر جامع البيان في تفسير آي
القرآن للطبري 3م 142. 146 .

3 - انظر معجم اللغة العربية
المعاصرة: د أحمد مختار عبد
الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ)
بمساعدة فريق عمل: عالم الكتب
الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م،
ص 2/ 1583.

4 - انظر الظلال لسيد قطب
بتصرف 2/ 38.

5 - أخرجه الإمام أحمد في المسند
2/ 361 برقم 8721 وقال شعيب
الأرنؤوط: إسناده حسن.

6 - انظر التحرير والتنوير للطاهر
بن عاشور 4/ 57.

4 . المجتمع في المدينة المنورة
تعامل بوسطية واعتدال وتفاعل مع
مختلف الأطياف التي كانت تعيش معه
وتعيش معها في مختلف مناحي الحياة
الإنسانية، مما يؤكد أن التعايش
مع غير المسلمين كان ثقافة رائجة
في المجتمعات العربية و الإسلامية،
وليست ثقافة وافدة جديدة
مستحدثة.

عَلَى عَيْنِي ﴿طه: 39﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: 67) 4/ 413. 6. 446/ رقم 11450.7736.

9 - صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري دار إحياء التراث العربي كتاب الصلاة باب استحباب التعوذ من عذاب القبر 1/ 410 رقم 584 والنسائي في السنن المجتبى باب التعوذ من عذاب القبر 4/ 104 رقم 2064.

10 - أنظر صحيح ابن خزيمة محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري دار المكتب الإسلامي بيروت: 1390 - 1970 تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي جماع أبواب الاستنجاء بالماء باب ذكر ثناء الله ﷻ على المتطهرين بالماء 1/ 45 رقم 93 وأخرجه أبو بكر الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد باب الإستنجاء بالماء عن عويم بن ساعدة 1/ 212 وقال: «رواه أحمد والطبراني

7 - انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (2/ 397 . 398)، تفسير ابن كثير (2/ 276)، تفسير القرطبي (3/ 63)، تفسير الفخر الرازي (3/ 57). وانظر حكم نكاح المشركات والكتابيات فيما يلي: شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي . علق عليه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الرزاق غالب المهدي. دار الكتب العلمية . ط1: 1415 هـ . 1995 م (3/ 220. 223)، حاشية الدسوقي على مختصر خليل (3/ 87 وما بعدها)، الأم للإمام الشافعي . دار المعرفة . بيروت . (5/ 7)، الممتع شرح المقنع لزين الدين المنجي الحنبلي. دار خضر للطباعة والنشر . بيروت . 1418 هـ 1997 م (5/ 87 . 89)، المحلى لابن حزم (9/ 445)، أحكام الأسرة في الإسلام دراسة مقارنة للدكتور مصطفى شلبي . الدار الجامعية . بيروت . ط4: 1403 هـ . 1983 م . ص 2243. 240، الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي. دار الفكر. (7/ 151. 152).

8 - السنن الكبرى للنسائي قوله: ﴿وَالْقِيَتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنْهُ وَلِئِنَّكَ

عباس قال أبو عيسى حديث جابر
حديث حسن صحيح والعمل على
هذا عند أهل العلم والسنن الكبر
للنسائي بيع الخنزير 4/ 54. 342/ 6
رقم 11172. 6265 عن طاووس عن
ابن عباس به والنسائي في السنن
المجتبى باب النهي عن الانتفاع
بشحوم الميتة 7/ 177 رقم 4256
وابن ماجه باب ما لا يحل بيعه 2
2167 272/

14 - رواه أبو بكر الهيثمي باب بيع
ماله 4/ 98 وقال: « قلت رواه ابن
ماجه باختصار رواه احمد وإسناده
حسن ».

15 - الجامع الصحيح للبخاري
باب إذا اقتسم الشركاء الدور أو
غيرها فليس لهم رجوع ولا شفعة 2
884/ برقم 2366.

16 - أخرجه الحاكم في المستدرک
37/ 2 رقم 2237.

في الثلاثة وفيه شرحبيل بن سعد
ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة
ووثقه ابن حبان».

11 - الجامع الصحيح باب ترجمة
الحكام وهل يجوز ترجمان واحد
وقال خارجه بن زيد بن ثابت عن
زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه
وسلم أمره أن يتعلم كتاب اليهود
التي كتبت للنبي ﷺ كتبه وأقرأته
كتهم إذا كتبوا إليه وقال عمر
وعنده علي وعبد الرحمن وعثمان
ماذا تقول هذه قال عبد الرحمن
بن حاطب فقلت تخبرك بصاحبها
الذي صنع بها وقال أبو جمرة كنت
أترجم بين بن عباس وبين الناس
وقال بعض الناس لا بد للحاكم من
مترجمين.

12 - أخرجه أبو بكر الهيثمي
في مجمع الزوائد باب حق الجار
والوصية بالجار 8/ 166 وقال «رواه
الطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه
حسن وبقيه رجاله رجال الصحيح».

13 - سنن الترمذي باب ما جاء في
بيع جلود الميتة والأصنام 591/ رقم
1297 وقال وفي الباب عن عمرو ابن